العلم المبعد عن الله

سؤال: ما الدروس المستفادة من الحديث النبوي الشريف: "مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا زُهْدًا لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ ﷻ إِلَّا بُعْدًا"[٣٢].

الجواب: إنّ الطرق التي توصِل الإنسانَ إلى الله تعالى كثيرةٌ بعدد أنفاس الخلائق؛ فلكلّ إنسانٍ ملكاتٌ وقابلياتٌ مختلفةٌ عن الآخر، وعليه فإن بعضَ ذوي الطبائعِ الحسّاسة يرون أنَّ العِشْقَ هو أهمُّ السُّبُلِ الموصِلَةِ إلى الحق تعالى؛ ولذلك فإن بعض الضاربين في الأرض طلبًا للعشق قد تناولوا هذا الطريق وتحدثوا عنه، ومنهم "فضولي البغدادي" إذ أنَّ وتألَّمَ يطلبُهُ قائلًا:

اللهمَّ أذِقني بلاء العشق دومًا

ولا تُبعدني عنه لا لحظةً ولا يومًا

بينما الشيخ "محمد لطفي أفندي" أحد رجال القلب والمعنى يقول:

هَبْ قلبكَ لمعشوقٍ فيُسرّك ويُبهِجك

وتمسَّك بذَيلِ مَنْ مُرادَكَ يُبلِّغُك

---

(٣٢) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٦٠٢/٣.

وثمة بطل آخر من أبطال العشق هو "الشيخ غالب"، تراهُ يُصوّرُ العالَم الداخليَّ للعاشق قائِلًا:

إنّ الجنة لتَهمُّ قلبَ الزاهدِ

ولا يهمُّ قلب العارف المكلومِ إلا معشوقُه

وإنّ بعضَ سالكي سبيل الحقِّ والحقيقة حاولوا الوصول إلى الله تعالى عبر طريق الزهد، واعتقدوا أنَّ هذا الطريق أهمُّ وأسلَمُ بالنظر إلى غيره من الطرق الأخرى، والزهد -في أحد معانيه- يعني تركَ الدنيا وما فيها، والاستفادةَ منها بقدرِ الحاجة فحسب، فالإنسان لا ريب مُطَالبٌ بتلبية حاجاته البدنيّة من أكلٍ وشربٍ ونومٍ حتى يواصل حياته، بيدَ أنَّ الإنسانَ الراغبَ في أن يحيا حياته في دائرةِ الزهدِ لا يطمع بالاستغراق في الاستفادة من هذا النوع من النعم الدنيوية، ولا إلى التشبُّعِ منها؛ خوفًا من أن تُوقِعَهُ هذه الملَذَّاتُ في الغفلة، ومن ثمَّ يسترشد في حياته دائمًا بعبارة: "ما هذه الملَذَّات إلا نماذج، وقد أُذِنَ لنا منها بالتذوُّقِ فحسبُ، لا بالشراهةِ والغَبِّ".

أما أرباب الكمال وبعض الأرواح الحسّاسة الساعية إلى التعرُّف على الله تعالى عبرَ طريقِ التدبُّرِ والتذكُّرِ والتفكُّرِ فإنها تُحَلِّلُ الأشياء والحوادث بعمقٍ دائمًا، وتطالِعُ كتابَ الكون وتُقيّمُ المناسبات بينه وبين القرآن الكريم معجزِ البيان، وتسعى لمشاهدة كلِّ واحدٍ من هذين الكتابين تحت عدسة الآخَر ومرصده.

التائهون في أودية التقليد

خلافًا لكلِّ هؤلاء فإنّ ثمّةَ أناسًا أَسَرَهم التقليد وكَبَّلهم؛ بحيث عجزوا عن التخلُّصِ من العيش الصوريِّ والشكليِّ، وأمثالُ

هـؤلاء الناس يصعبُ عليهـم إلى حدٍّ بعيدٍ أن يتقدَّموا ويسـيروا إلى الأمام؛ فموقفُهم من حيث تقليدهم ما رأوه عند آبائهم يُشْـبِهُ موقفَ الكافريـن الذيـن: ﴿**قَالُوا حَسْـبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَا**﴾ (سـورة الْمَائِدَةِ: ١٠٤/٥)، والإنسانُ الذي يعيش هذه الحالة يجب عليه أن يسأل نفسه: "لو تربَّيتُ في حظيرة إحدى الكنائس هل كنتُ أستطيـعُ أن أظفرَ عبر العقل والمنطق والمحاكمة العقلية ولو حتى بإسلامي التقليديّ الذي أنا عليه الآن؟!"، والحقُّ أنَّ أهل السنة والجماعة قالوا بقبول الإيمان حتى ولو كان تقليديًّا معتمدين في ذلك على سـعةِ رحمةِ الله تعالى؛ أي إنـه سـينجو أولئـك الأشـخاصُ الذين إنّما يشـهدون أنَّـه "لا إله إلا الله وأنَّ محمـدًا رسـول الله" ويذهبون إلى المسـاجد، ويصومون تقليدًا لآبائهم واقتداءً بهم ليسَ إلّا.

كثرة من يزعم أنه المهدي المنتظر

الحقيقـة أن هـذه الأمور المذكورة بالنسـبة للتقليد ترسُـمُ جيلَنا وتُصَـوِّرُهُ، لأنَّـه ليـس بيننـا علـى الإطلاق مـن توصَّلَ إلـى الحقائق التـي نؤمـن بها اليـومَ مُعمِلًا عقلَـهُ ومُعْيِيًا إيّاه في سـبيل ذلك، ومما يؤسف أنه ليس منّا من ترك راحته وفراشه ليلًا وتجول في الممرات كالمجنـون وسـعى كمـا كان يسـعى "زيد بـن عمـرو"[٣٣] -عمُّ عمر

(٣٣) وزيد بن عمرٍو هذا مات قبل بعثة النبي لكنّه كان من الموحّدين العرب، وكان يقول: "اللهم إني لو أعلم أَحَبّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكني لا أعلم"، ثم يسجد على راحلته، وروى البخاري عن ابن عمر أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ، قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا،

ووالد سعيد بن زيد ﷺ- الذي سافرَ من الجزيرة العربيّة إلى الشام بحثًا عن الدين الصحيح، وحرصًا منه على الوصولِ إليه[٣٤]، إننا لم نسعَ سعيًا حثيثًا كي نجده، وإنما اكتفينا بالتقليدِ فحسب، ولا سيما إنْ همَّ البعضُ يصفّقُ لإسلامنا ويمتدِحُه، وظنَنَّا أنفسنا شيئًا فقد انخدَعْنا أيّما انخداع، حتى إن بعضَ البائسين أسلموا أنفسَهم للشُّهْرَةِ والصيتِ أمام هذا التقدير والتصفيق، ونتيجةً لذلك ظهر في كلِّ مكانٍ عددٌ من الأشخاص ادّعى كلٌّ منهم أنه المهدي، فنحنُ نرى في عصرِنا دعاة المهديّة قد كَثُرُوا، لدرجة أننا إنْ قلنا "ثمة حالةٌ من التضخُّمِ في ادِّعاء المهديِّ المنتظرِ" لم نبالغ. أجل، فبينما بعض المؤمنين يحاسب نفسه إن كان في عِدادِ المؤمنين أو لا؛ هناك من يرى نفسَه بطلًا سَيُخَلِّصُ العالمَ في حملةٍ واحدةٍ، ويطرح القياصرة والأكاسرة أرضًا، أما الحقيقةُ والواقعُ فتُظهران أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء عبدٌ من عبيدِ التقليد الذين لم يعرفوا الله ولا رسوله ﷺ حقَّ المعرفة، ولم يُدرِكوا شيئًا من حقيقة الخلفاء الراشدين ولا الصحابة الكرام، وتقدُّمُ هؤلاء مِنَ الصعوبةِ بمكان؛ لأنهم لم يعرفوا أين هم، وكيف أنهم يتعثَّرون حتى على الطرق المستوية الممهَّدة.

والحالُ أنَّه يجب على القلب المؤمن أن يتفكَّرَ ويتدبَّرَ ويتذكَّرَ دائمًا بينما يُبحر إلى بحار معرفة الذات الإلهية ومحبَّتِها، وأن يواصلَ

وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِه؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا الله، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ" (صحيح البخاري، المناقب، ٨٣). وروي أنه كان يدعو الله إن لم يُقَدَّرْ له أن يُدرِكَ النبيّ المنتظَرَ فليُدرِكه ابنُه سعيد، وفعلًا أدركه ابنُه سعيدٌ وفازَ بذلك فكان من العشرة المبشرين بالجنّة.

(٣٤) صحيح البخاري، المناقب، ٨٣.

طريقَـهُ دون تلكُّـؤٍ أو تباطُـؤٍ أو اكتفـاء، وعليه أن يقـول أمام كؤوس المعرفة المقدَّمة إليه كما قالَ ذلكَ العاشقُ الولهانُ:

انظر إلى حال هذا العبد الفقيرِ
لقد أَسَرته ذؤابةُ شَعرِك الضَّفيرِ
وكلَّما غمستُ أصبعي في عسلِ عِشْقِك
استَزدْتُ منه فزادني عطشًا فأدْرِكْني بماءِ وصْلِك

وعليه أن يسـتزيدَ شـربًا، تمامًا كالظمآن الذي يسـعى لريِّ نفسـه بشربه من ماءِ البحر؛ فكلّما شربَ أكثر كلّما ازدادَ عطشًا أكثر، ويلزمه وهـو يبحرُ إلى المعرفةِ ليتعمَّـقَ فيها من جانبٍ؛ ألا تغادرَ عقلَه -من جانـب آخـر- ملاحظاتٌ مهمّـة مثل: لو أنني اسـتطعتُ أن أسـمعَ وأُحسَّ ما يجب أن يُسمـع ويُحَسّ بالفعلِ وأدركت حقيقةَ ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة الرَّعْد: ١٣/٢٨)، ويا ليتني وعيتُ تلك البشارة الواردةَ في هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْـنُ مَـآبٍ**﴾ (سـورة الرَّعْـد: ١٣/٢٩)، لـو أنني اسـتطعتُ ذلك؛ لكنـتُ أتَّصِلُ بالحقِّ تعالى اتصالًا أقوى، وأترنَّم بنغماتِ العشـق والاشتياقِ دائمًا، وأخفـضُ للمؤمنين جنـاحَ الذلِّ والتواضـع، وأنظـرُ إلى المخلوقات كلِّهـا برأفةٍ وشـفقةٍ واسـعة كالفضـاء، وعدمُ حدوثِ هـذا يعني أنني ما زلتُ أخلدُ إلى الأرض وَضَاعَةً ودنوَّ مقام.

الجمعُ بين السعيِ الخارقِ والتواضعِ الفائقِ!

مـن علامـات العبوديّة الحقَّة الجمعُ بين سـعيٍ خارقٍ وتواضُـعٍ فائقٍ؛ فعلى الإنسان أن يرتقيَ إلى العُلى حتى إن الملائكة حين تنظر إليـه تتحيَّرُ وتتعجَّبُ قائلةً: "يا لَلعجـب! كيفَ لِمخلوقٍ من صَلْصَالٍ

من حمإٍ مسنون أن يُشَارِكَنا نفسَ الأفقِ أو يُحَلِّق أمامنا؟!"، وينبغي له عندئذٍ أن لا يرى نفسَه إلا صفرًا، ويقولَ بكلِّ راحةٍ ودون تردُّدٍ حين يطلبون منه الحديث عن نفسه: "لا شيءَ قطّ".

ليس ثَمّة إنسانٌ أعظمَ من مفخرة الإنسانية ﷺ من حيث إدراك الكمال بحقّ، وبرغمِ هذا فقد تضرَّعَ ﷺ إلى الله تعالى داعيًا إيّاه: "**اللهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيرًا وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا**"(٣٥)، وقد دعا أحدُ أولياء الله بهذا الدعاء وعدَّلَ فيه تعديلًا يُوافِقُ حاله فقال: "اللهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيرًا وَفِي دِينِي كَبِيرًا!".

ينبغي للإنسان أن يرى نفسه وضيعًا صغيرًا مثل جناحِ بعوضة، بيد أنه يجبُ عليه من ناحيةِ العمقِ الدينيّ أن يقول: "إلهي! بلِّغْني كمالًا في الدين وارزقني فقهًا فيه، حتى إن وارداتي الخاصّة بِدِيني تكفي لدخول الإنسانيّة كلّها في الجنة!"، ومن هذا المعنى مقولةُ سيدِنا رسول الله ﷺ في حقِّ سيدنا ماعزِ بن مالكٍ ﷺ بعدَ إقرارِه بذنْبه، إذ قالَ: "**لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**"(٣٦)، وذلك لأنه ارتكبَ ذنبًا خفيًّا في مكانٍ لم يعرفْه ولم يرهُ فيه أحدٌ من البشر، فندمَ على ذلك، وهرعَ إلى رسول الله ﷺ وأخبرَهُ أنهُ يريد أن يَتطهّر من ذنبه؛ فردّه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وبالرغم من هذا كان يرجع في كلِّ مرة إليه مجدَّدًا كي يُطهِّرَ نفسَه مما فعل، وبعدَ أن أُقيمَ عليه الحدُّ قال رسولُ الله ﷺ قولته المذكورة آنفًا بيانًا منه لحقيقةٍ مهمّةٍ، ومنعًا لإساءة الظنّ به(٣٧).

(٣٥) البزار: **المسند**، ٣١٥/١٠؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٤٧٣/١.

(٣٦) صحيح مسلم، الحدود، ٥.

(٣٧) انظر: صحيح مسلم، الحدود، ٥.

أجل، ينبغي للإنسان أن يتعمَّقَ دائمًا في الإيمانِ والمعرفةِ والمحبَّةِ والذوقِ الروحانيّ والثباتِ على العشـق والشوق، غير أنه إلى جانب هذا يلزمه أن يرى نفسـه "لا شـيء"، فهو إن كان قد توصَّلَ إلى عمقٍ قلبيٍّ بالفعل سيرى نفسَهُ أحقرَ الوَرَى، وبمفهوم مخالفٍ فإن الإنسان إن رأى نفسَـه أعلـى من الآخرين فهو في الحقيقـة أحقرُهم وأدناهم منزلةً، ولن تتغيَّر النتيجة مؤمنًا كان هذا الشخصُ أو منافقًا أو كافرًا.

العِلم هو أن تعرف نفسك

إن الإنسـان الذي يظنُّ نفسَـهُ على درجةٍ عاليةٍ رفيعةٍ، ويدَّعي أنه حالةٌ خاصّة عن باقي البشرِ وأنّه إنّما أُرسِلَ مزوَّدًا بإمكانياتٍ وصفاتٍ خاصَّـة من عنـد الله للقيام بوظيفـةٍ مهمّة، وللأخذ بِيَدِ الإنسـانيّة من أجـل إيصالهـا إلـى أوجِ الكمالات؛ ليس له في الحقيقـة قيمةٌ تُذكرُ؛ مثلُـه في ذلك مثل جنـاحِ بعوضةٍ، لأن علامةَ العَظَمَـةِ هي التواضـعُ والفناء، وعلامة الضَّعَةِ والدناءةِ هي التكبُّرُ والغرورُ.

والمعرفـة الحقيقيّة هي أن يسـتطيع الإنسـان تَتْويـجَ ما لديه من علـمٍ بالتَّتَبُّـهِ التَّـامّ لمثـلِ هذه الملاحظات، وهذا شـأنُ من ارتشـفوا الكمـالَ، وبلغـوا النضجَ، واسـتطاعوا جعـلَ علمِهم النظـريّ واقعًا وعمـلًا ملموسًـا، وبالرغـم من أنَّ الشـيخ محمد لطفـي أفندي كان يجلس على وسـادَته سـتّ ساعات يوميًّا يشـتغل بالعلم والذِّكر فقد كان وجهه يصفرُّ ويشحب حين يتذكّر الذات الإلهية فيقول:

ليس لي عِلْمٌ ولا عمل نافـع...
ولا قدرةٌ على الطاعة والبر، ولا دافـع
غريقٌ في العصيان... كثيرُ الآثام والشرور...
فماذا تكون -يا تُرى- حالي يوم الحشر والنشور؟!

ويقول يونس أَمره:

العِلم هو أن تعرف

أن تعرِف نفسَك

فإن أنت لا تعرفها

فالعفاء على ما قرأت

أما الذين يُعَلِّقون المسألةَ على تقدير هذا وامتداحِ ذاك؛ فليس بإمكانهم أن يتجاوزوا الموضعَ الذي يقفون فيه ولو خطوةً واحدة إلى الأمام، فمثلُ هؤلاء لن ينفعَهم مدحُ الآخرين لهم ولا إطراؤُهم أو تقديسهم، وإن قيّمنا الأمر في ضوء الحديث النبوي الشريف الوارد في السؤال؛ فإنه إن لم يرفض المؤمن الدنيا وما فيها ويُعرِض عنها زاهدًا فيها برغم وفرة علمه، وظلَّ يهتمّ بالدنيا وشأنها ويركض وراءها لاهثًا، وما إن وصلَ مرتبة حتى طَمِعَ في المرتبة الأعلى منها، وراح يتقطَّعُ متحرّقًا جزِعًا حتى لا يضيع ما في يديه من متاع الدنيا؛ فإنّ هذا كلَّه لا يعني سوى البُعدِ عن الله تعالى، أجارنا الله وإياكم.